— ٧ —

النثر العربى فى نصف قرن

الرأى الشائع بين المحافظين من أهل الأدب العربى وأصحاب العلم به : أن النثر أيسر من الشعر وأن اصطناعه شىء سهل لا يكلف صاحبه عناء ولا مشقة ، وهم من هذه الناحية يقدمون الشعر على النثر ، ولهم فى ذلك مباحث طوال وكلام كثير ، تستطيع أن تلهو به إذا نظرت فى كتاب العمدة لابن رشيق وما يشبهه من الكتب . وما أظن أن رأى الأدباء تغير فى هذا الموضوع . فهم مايزالون يعتقدون أن الشعر أعسر من النثر وأبعد منه متناولا ، ثم مايزالون يعتقدون أن النثر أقدم من الشعر وجوداً ، وهم معذورون فظواهر الأشياء كلها توهم ذلك وتحمل على الجزم به .

فالنثر مطلق لا قيد فيه ، والشعر مقيد بالوزن والقافية ، والنثر مشبه فى إطلاقه لكلام الناس فى حياتهم اليومية وحوارهم المألوف. وإذن فالناس يتكلمون نثراً ، وهم يتكلمون قبل أن يشعروا ، وهم لا يجدون مشقة فى الكلام، وهم يجدون

فى نظم الشعر مشقة وعناء ، وإذن فالنثر أقدم من الشعر وأيسر وأدنى منالا . ومن هنا يقسم مؤرخو الآداب العربية كلام العرب إلى منظوم ومنثور ومسجوع ، وهم يرون أن النثر كان فى العصور القديمة أكثر من الشعر ، ولكن ما حفظ من قديم الشعر أكثر جداً مما حفظ من قديم النثر ، وتعليل هذه الظاهرة لاعسر فيه فالشعر أشد عسراً من النثر فى الانشاء ولكن الشعر أدنى الى الحافظة وأسلس لها قياداً من النثر . أليست القيود التى تأتيه من العروض والقافية تقربه من الحافظة وتجعل فى استظهاره لذة وراحة لانجدهما فى استظهار النثر ؟ فاذا كان مانرويه من نثر العرب قبل الاسلام قليلا فليس ذلك لأنهم لم ينثروا بل هو لأنهم لم يكونوا يكتبون ، ولأن حافظتهم لم تكن تطاوعهم إلى حفظ النثر واستظهاره فضاع نثر العرب الجاهليين إلا أقله ، وبقى شعر العرب الجاهليين إلا أقله .

كذلك كان يقول القدماء ، وكذلك مايزال يقول المحدثون ولكن شيئاً من التفكير والنظر فى آداب الأمم المختلفة يضطرنا الى أن نعدل عن هذا الرأى القديم ، فمن العجيب أن تتفق الأمم كلها على أن تحفظ من شعرها القديم أكثر مما تحفظ من نثرها فى عصورها الأولى ، ومن العجيب أيضاً

أن تتفق الأمم كلها فى ضعف الذاكرة عن النثر وقوتها على الشعر . ومن العجيب بعد هذا وذاك ألا تضعف ذاكرة هذه الأمم إلا عن النثر القديم ، فأما النثر الذى يظهر بعد أن تبلغ الأمة من الرقى العقلى والمدنى طوراً ما فان ذاكرتها تقوى عليه وتنهض باستظهاره كما تقوى على الشعر وتستظهره. الحق أن الأمم إذا لم ترو شيئاً من نثرها القديم فليس لذلك سبب إلا أنها لم يكن لها نثر فى أطوار حياتها الأدبية الأولى ، وإذا روت كثيراً من شعرها القديم فلأنها كان لها شعر فى أطوار حياتها الأولى هذه ، أى أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ، وأنه أيسر منه وأدنى منالا . وأنت إذا نظرت فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة ، وإذا نظرت فى حياة الأمم التى لم تكد تتحضر بعد فسترى أنها كلها تسبق إلى الشعر ولا تهتدى إلى النثر ولا تظفر به إلا بعد زمن طويل وجد غير قليل ورقى فى الحضارة ، وتقدم فى الحياة العقلية لا بأس بهما . تجد ذلك عند اليونان وتجده عند الرومان ، وتجده عند العرب وتجده عند الأمم الأوربية الحديثة .

وحيثما وجهت فى القبائل التى لم تستقر بعد فسترى كلاما منظوماً ، له أوزانه وقوافيه دون أن نجد لها هذا النثر الذى

يظن رجال الأدب أنه أقرب من الشعر منالا . ذلك أن النثر ليس أقرب من الشعر منالا ، فى حقيقة الأمر ، ولعل حظه من العسر ليس أقل من حظ الشعر إن لم يكن أكثر منه . فالنثر لغة العقل والشعر لغة الخيال ، والخيال أسبق إلى النمو فى حياة الأفراد والجماعات من العقل ، خيال الصبى والشاب أقوى من عقله وخيال الجماعات غير المتحضرة أقوى من عقلها ، فليس عجيباً أن يتكلم الخيال قبل أن يتكلم العقل وليس عجيباً أن يوجد الشعر قبل أن يوجد النثر، وليس عجيباً أن يكون الشعر أيسر تعاطياً وأدنى تناولا من النثر . فالخيال إن تقيد بالوزن والقافية حين يتكلم فهو لا يتقيد بشئ آخر ، هو حر طلق يمضى حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء ، لا كما تشاء الأشياء أو كما تشاء الطبيعة ، أما العقل فقد يطلق نفسه من قيود الوزن والقافية ولكن ما أثقل القيود والأغلال تأخذه وتعوقه عن الحركة ولا تأذن له بالتقدم إلا فى بطء وأناة ، هو لا يطير ولا يحسن أن يطير ، وهو لا يعدو ولا يستطيع أن يعدو ، فاذا حاول الطيران أو العدو فليس هو العقل الخالص وإنما هو العقل قد غلب عليه الخيال ، هو لا يطير ولا يعدو ولكنه لا يسعى فى هدوء ،

وهو لا يصور الأشياء كما يشاء ولكنه يقبل صورها كما هى، هو مقيد والخيال مطلق، وهو بطىء والخيال سريع، فليس عجيباً أن يتأخر نموّه عن نموّ الخيال، وليس عجيباً أن يكون إنتاجه أعسر وأقل من إنتاج الخيال، وليس عجيبا آخر الأمر أن يكون النثر الذى هو لغة العقل أحدث وجوداً من الشعر الذى هو لغة الخيال

ولكن مالى ولهذا كله ؟ وأين أنا من الموضوع الذى أريد أن أكتب فيه ، وهو النثر العربى فى هذا العصر الذى نحن فيه ؟ وما هذه المقدمات الطويلة ؟ . أليس القارىء يحس أنى أطيل عليه وأثقل فى غير نفع ولا جدوى ؟ بلى ، ولو كنت من أصحاب الخيال لما أطلت ولا أثقلت ولا احتجت الى مقدمات فالخيال كما قلنا خيف حر يأتى حيث شاء وكيف شاء ولكننى أريد أن أكتب نثراً ، أى أريد أن أحمل عقلى على أن يتحدث إلى عقل القارىء ، وقد قلنا إن العقل رزين بطىء لا يطير ولا يعدو ، ولكنه يسعى فى أناة فليسع القارىء معى فى أناة أيضاً ، ولينتقل معى من كل هذه المقدمات الى حيث أريد أن أنتقل به . ليلاحظ أن هناك صلة قوية جداً بين الحياة العقلية وحظ النثر من القوة والضعف، من الرقى والانحطاط ، من البرد والحر والفتور . متى بلغ النثر اليونانى أقصى ما استطاع أن يبلغ

من الرقى؟ فى عصر سقراط وأفلاطون . ومتى بلغ النثر العربى أقصى ما كان يستطيع أن يبلغ من الرقى ؟ فى عصر ابن المقفع والجاحظ وأشباههما . أى أن رقى النثر كان عند اليونان والعرب رهيناً برقى الحياة العقلية وانبساط سلطان الفلسفة على العقول وهو كذلك عند الرومان، وهو كذلك فى أمم أوربا الحديثة، وهو كذلك فى مصر. إن الذين يريدون أن يؤرخوا الآداب العربية فى هذا العصر الحديث خليقون ألا يقطعوا الصلة بين الأدب والعلم، وألا يظنوا أن الحياة الأدبية تستطيع أن تستقل استقلالا تاماً عن الحياة العلمية ، بل هم خليقون أن يعتقدوا أن ليست هناك حياة أدبية وحياة علمية ، وانما هناك حياة عقلية تظهر مرة فى شكل أدبى هو النثر الفنى وتظهر مرة أخرى فى شكل علمى، هو هذا النثر الذى نجده فى كتب العلم الخالص ، أقول إن الذين يدرسون تاريخ الأدب فى هذا العصر الحديث خليقون أن يقدروا تأثير العلم والفلسفة فى هذا الأدب وفى النثر بنوع خاص ، فليس يمكن أن يكون من أثر المصادفة وحدها أن تطرد الصلة بين الرقى العلمى الفلسفى ورقى الآداب عامة والنثر منها بنوع خاص ، وفى الحق أنك حين تقرأ هذا النثر الذى كان يكتب فى الشرق

العربى فى أول القرن الماضى تشعر بالفساد الفنى الأدبى وحده ، ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ماتقرأ من المعنى القيم وباعدام هذه العقول التى يترجم عنها هذا النثر، وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه العقول وفقرها من الفساد الفنى الذى يتصف به النثر العربى فى كل العصور التى ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعنك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى، من سجع وتكلف فى الاستعارة والمجاز فى التشبيه والكناية والتورية وما إليها ، فليس هذا كله إلا تكلف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر الغنى المثرى . إنما مثل هؤلاء الكتاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة ، وأعوزها حر الحلى فهى تخدع الناس ببهرجه وزائفه ، ومن هنا تستطيع أن تلاحظ أن النتيجة القيمة التى جاء بها القرن الماضى فى النثر العربى إنما هى إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية ، وهو لم يطلقه من هذه القيود عبثاً وإنما أطلقه منها لأنه منحه هذا الروح القوى الذى مكنه من أن يستقل بنفسه ويستهوى العقول والألباب قليلا قليلا، وهذا الروح القيم الذى بث الحياة فى النثر العربى وألقى

عنه هذه اللفائف البالية التى كانت تثقله وتعوقه عن الحركة إنما هو المعنى، وهذا المعنى إنما جاء من الحياة العقلية التى أنشطها العلم والفلسفة فى القرن الماضى. وليس أدل على صدق ما نقول من أنك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته من هذه الأغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجاءة وإنما كانا رهينين بوجود الصلة ونموها بين الشرق والغرب أى بين العقل المعدم والعقل الغنى. مؤلم جداً هذا الشعور الذى تجده حين تقرأ الجبرتى وأمثاله من الذين كانوا يكتبون فى أول هذا العصر الحديث. ولكن توسط القرن الماضى واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام فستجد شيئاً من اللذة يشوبه شىء من الألم كثير، لأنك تقرأ كلاماً يدل على شىء، ويريد بنوع خاص أن يدل على شىء، ولكنه لا يكاد يبلغ ما يريد لأن حظه من المعنى قليل من جهة لأنه لم يستطع بعد أن يخلص من تلك القيود والأغلال من جهة أخرى. ثم صِل إلى الثلث الأخير من القرن الماضى واقرأ ما كان يكتب فى مصر والشام أيضاً فسيعظم حظك من اللذة وستشعر بشىء من الألم، ولكنه ليس هذا الألم الذى تجده حين تشهد البؤس والاعدام وإنما هو نوع آخر من الألم تجده حين تشهد التكلف والتصنع، وحين نحس أن هذه المعانى،

لو اطلقت من قيودها وأرسلت على سجيتها لأحدثت فى نفسك من البهجة واللذة مالا تستطيع أن تحدثه وهى مثقلة بما يحيط بها من لفائف البديع والبيان .

كل هذا يدل على أن النثر العربى قد كان ثقيلا بغيضاً ـ أول القرن الماضى ـ لأنه كان قليل الحظ من الحياة العقلية لا أثر فيه لشخصية الكاتب ولتفكيره ، أو قل لأنه كان فقراً كله ثم أثرى العقل الشرقى شيئاً فشيئاً فدبت الحياة فى النثر بمقدار هذه الثروة العقلية ، وأخذ هذا النثر كلما أحس حياته وقوته يجتهد فى أن يخلص نفسه من قيود الفقر وأغلال البؤس ، حتى انتهى إلى حيث هو الآن من حرية وانطلاق. فالنثر إذن مدين فى هذا العصر بحريته وانطلاقه ورقيه الفنى كما كان مديناً فى غير هذا العصر بهذه الأشياء كلها للعلم والفلسفة، وما أحدثا من تنشيط العقل ورده إلى اليقظة بعد النوم وإلى الحركة بعد الجمود . ومن الحق على الكتاب المجيدين أن يعرفوا ما للعلماء والفلاسفة عليهم من فضل وأن يقدروا ما للذين نقلوا إليهم العلم والفلسفة عندهم من يد، فلولا المترجمون فى العصر العباسى ما عرفت العربية نثر ابن المقفع والجاحظ ، ولولا المترجمون فى هذا العصر الحديث ما عادت للنثر العربى حياته

القوية النشيطة التى نريد أن نتحدث عنها بعض الحديث .

أخشى أن أكون مسرفاً بعض الشئ . فان حياة النثر العربى فى هذا العصر لم تأت كلها من قبل العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، وإنما جاءت من قبلهما ومن قبل شئ آخر هو الأدب العربى القديم فى عصوره الراقية . فقد كان الكتاب وأهل العلم فى أوائل القرن الماضى يجهلون أو يكادون يجهلون قديم العرب وما كان لهم من شعر جيد ونثر رائع ، وكان الذين يلمون منهم بهذا الأدب القديم لا يكادون يفهمون ما يلمون به على وجهه ، وكانوا لا يحاولون أن يتأثروه أو يحتذوه . أما الآن فقد تغير هذا كله وعرف الأدب العربى القديم . وعادت الحياة إلى الشعر العربى والنثر العربى ، فنحن نقرأهما ونحفظهما وننقدهما ونتأثرهما ولهذا كله حظ عظيم من التأثير فى وجود ما نكتب من نثر وما ننظم من شعر . ولكن ما الذى رد الحياة إلى الأدب العربى القديم ؟ وما الذى ذكّر كتاب الشرق وشعراءه بهذا الأدب وما الذى حملهم على قراءته وروايته ونقده واحتذائه ؟ إنما هو هذا الروح العلمى الذى جاءنا من العرب ونقله إلينا المترجمون . هذا الروح العلمى هو الذى أنشط العقول ، وحملها على أن تفكر فى القديم والحديث

وعلى أن تغذو نفسها بهما معاً . وإذن فأنا لم أسرف ولم أتجاوز الحق حين رأيت أننا مدينون بحياة النثر لهؤلاء المترجمين الذين أوجدوا الصلة بين الشرق النائم والغرب اليقظ . ولقد أحب أن أعرف حظ البلاد الشرقية فى ايجاد هذه الصلة الخصبة القيمة بين الشرق والغرب فلا أجد فى ذلك مشقة ولا عسراً ، فالبلاد التى ردت الى الشرق حياته العقلية والأدبية فى هذا العصر . هى بعينها البلاد التى أحيت الشرق فى العصور الأولى حياة قوية مطردة لا عارضة ولا متكلفة . نعم لم يستمد الشرق العربى حياته قديماً من شمال أفريقية ولا من جزيرة العرب بل لم يستمدها من العراق الا بمقدار ، وإنما استمد حياته الصالحة الخصبة فى نظام واطراد من مصر والشام . من هذين القطرين أزهرت الحضارة الشرقية الخاصة ، ومن هذين القطرين انبعثت الحضارة إلى أطراف الشرق ، وفى هذين القطرين أثمرت الحضارات الأخرى التى نشأت من غيرهما وسيطرت على الشرق حيناً طويلا أو قصيراً كحضارة اليونان والرومان والعرب ، وإلى هذين القطرين لجأت الحضارات الشرقية وغير الشرقية حين ضاقت بها البلاد الأخرى فوجدت فيهما ملجأ أميناً ومأوى حصيناً نعم وفى هذين القطرين نشأت

النهضة الشرقية فى هـــذا العصر الأخير : نشأت فى مصر ونشأت فى الشام أوائل القرن الماضى ، واستبق القطران فيها استباقاً عظيما حتى أصبح من العسير أن نحدد الحظ الذى ظفر به كل منهما فى هذه النهضة ، فبينما كان أمراء مصر من الأسرة العلوية يجدّون فى إنهاض مصر وتقوية الصلة بينها وبين الغرب . وإرسال الوفود العلمية إلى أوربا واستقدام العلماء الأوربيين إلى مصر ، وإقامة المعاهد العلمية المختلفة . ونقل الكتب فى ألوان العلوم والفنون كان المسيحيون من أهل الشام يتصلون بأوربا اتصالا قويا لأســـباب مختلفة : منها السياسة ومنها الدين ومنها العلم . وكانت تحدث فى بلاد الشام حركة مشبهة جداً لهذه الحركة التى كان يستحدثها الأمراء فى مصر ، وكانت تنتج عن هاتين الحركتين فى مصر والشام نتيجة واحدة : هى نشاط العقل الشرقى واستئنافه الحركة والحياة . ولكن من الحق أن نلاحظ أن مظهر النهضة كان فى مصر علمياً عملياً أو أقرب إلى العلم والعمل منه إلى أى شىء آخر ، بينما كان مظهر الحركة فى الشام أقرب الى الأدب واللغة ، وأدنى اليهما منه إلى أى شىء آخر . فأنت تستطيع أن تجد فى مصر فى أثناء القرن الماضى العلمـاء الذين تفوقوا فى

الطب والرياضة والطبيعـــة ، ولـكنك لا تكاد تظفر فيها بأديب يعدل هؤلاء الأدباء الذين كثروا فى الشام . وأنت تستطيع أن تجد فى الشام أدباء تفوقوا فى الأدب واللغة واستحدثوا فيهما الجديد النافع ، ولـكنك لا تجد فى الشام مثل ما تجد فى مصر من العلماء . ومهما يكن من شىء فقد أرادت ظروف الحياة التى أحاطت بالقطرين أن يلجأ النشاط السورى فى الأدب واللغة إلى مصر منذ أواخر القرن الماضى، وأن تكون القاهرة مستقر الحركة العقلية القوية فى الشرق كله ، فانتقل أدباء السوريين وعلماؤهم إلى مصر ووجد نشاطهم فيها مالم يكن يجده فى الشام من القوة والتشجيع فآتى ثمرته الباقية الخالدة وأصبح النثر العربى الآن أصدق مزاج التأم فيه الروحان السورى والمصرى التئاماً لا سبيل إلى تفريقه. ولست أقول هذا الكلام عبثاً ، ولا أطلقه من غير دليل ، فليس من شك فى أن الصحافة صاحبة الحظ الموفور فى نشر الأدب والعلم وإنشاء النثر الحديث ، وأنا حين أذكر الصحافة لا أريد بها اليومية دون الأسبوعية أودون الشهرية إنما أريد الصحافة كلها ، والصحافة سورية مهما يكن من شىء، ولعل أحداً لا يستطيع أن يناقش فى أن الصحافة المصرية

الخالصة حديثة العهد بالوجود وأنها على ما بلغت من قوة الأيد وشدة الأسر فى هذه الأيام لم تستطع أن تسبق الصحافة السورية ولا أن تتفوق عليها .

وحسبنا أن نلاحظ أن الصحافة المصرية إن كانت قد بلغت من القوة فى هذه الأيام حظاً موفوراً ، فهى بعد لم تستطع أن تتجاوز السياسة ، وهى إن أثرت فى الأدب فمن طريق السياسة ومن السعى إلى السياسة ، فأما الصحافة الأدبية والعلمية الخالصة التى تتناولها لتقرأ فيها فصلا من فصول الأدب ، أو مبحثاً من مباحث العلم ليس غير ، فما زالت إلى الآن سورية وهى ترحب بضيوفها من المصريين وغير المصريين ، وتجد فى تضييفها إياهم حياة وقوة ، ولكنها على كل حال سورية .

والآن وقد ألممنا بأصول هذه النهضة النثرية العربية فهل نستطيع أن نشخصها تشخيصاً صحيحاً وأن نصل إلى المميزات التى تفرق بين هذا النثر الذى نكتبه الآن والنثر الذى كان يكتب منذ خمسين سنة ؟ أعتقد أن ذلك ليس عسيراً فقد كان النثر منذ خمسين سنة كما قلت لك آنفاً متوسطاً بين حالين فيه معنى قيم يحدث فى نفسك ماتطمح إليه من لذة علمية وفنية ولكنه

لم يخلص من تلك الأغلال والقيود التى كان يرسف فيها النثر القديم . فهو مقيد بالسجع متكلف للاستعارة وألوان البديع والبيان ، ولكنه لم يكن يتكلف هـــذه الألوان بحكم الفقر والاعدام ، وانما كان يتكلفها بحكم العادة ولم يكن بدٌّ فى ذلك الوقت الذى أحسَّ العقل الشرقى فيه حريته وشخصيته من أن تشب الحرب ضروساً بين المذهبين المختصمين دائما فى النثر : مذهب أصحاب القديم ومذهب أصحاب الجديد . وقد شبت بالفعل هذه الحرب وكان السوريون هم الذين شبوها لأنهم كما رأيت أصحاب الصحافة ، ولأنهم كما رأيت أقرب إلى النشاط فى الأدب منهم إلى النشاط فى غيره ، وأنت تعلم أن الصحفى مضطر بحكم صناعته وما تستتبعه من العجلة والتحدث إلى الجمهور إلى أن يتحلل من هذه القيود البديعية ، ويتخلص من هـذه الأغلال الفنية . وكذلك فعل الصحفيون من السوريين وكذلك فعل الصحفيون المصريون أيضاً ، واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن يكتبوا فصولا لا تخلو من آثار القديم ؛ فيها السجع وفيها تكلف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب فى أوائل القرن الماضى وفى منتصفه أيضاً ، فيها حرية لفظية

ومعنوية ظاهرة ، وفيها اجتهاد فى اختيار الحر من اللفظ واجتناب المبتذل، وفيها طموح إلى الجديد لم يكن يألفه الكتاب المصريون من قبل . وكثر انتشار المباحث العلمية الحديثة فى مصر والشام بفضل المجلات والصحف والكتب ، واشتدت حركة إحياء الأدب العربى فى القطرين وقرأ الناس العلم والأدب الغربيين فنشطت عقولهم وقرأوا الأدب العربى القديم فاستقامت ألسنتهم وأقلامهم. ولم يكد ينتهى القرن الماضى حتى كان الشعر قد خلص من أغلال البديع خلوصاً تاماً ، وحتى كان الجهاد بين القديم والجديد فى النثر قد تطور تطوراً غريباً فأصبح أنصار القديم لا يستمسكون بركاكة الجبرتى ولا يحرصون على بديع ابن حجة وإنما يستمسكون بقديم بغداد وغيرها من أمصار البلاد العربية فى العصر العباسى ، ويستمسكون بصحة اللفظ من الوجهة اللغوية وبراءته من العامية والابتذال. وأصبح أنصار الجديد لا ينفرون من البديع والبيان، فقد استراحوا من البديع والبيان وانما ينفرون من الاغراق فى هذا الأدب العربى القديم ويطمحون الى تقليد الأدب الغربى الحديث واصطناع الألفاظ الأوربية الأعجمية. اشتد هذا الجهاد بين أنصار القديم والجديد فى العقد الأول من

هذا القرن، وكان السوريون بنوع خاص من أشد الناس نصراً للجديد، وكان شيوخ مصر هؤلاء الذين توسطوا بين الأزهر والمدارس المدنية لأنهم تخرجوا من دار العلوم من أشد أنصار القديم وكان العلم يزداد انتشاراً والشباب يزداد إمعاناً فى الاتصال بأوروبا والتغذى بما فيها من علم وأدب. ثم كانت حركة وطنية فى مصر قوية عنيت بها الصحف واندفعت فيها اندفاعاً شديداً وكان الشبان قوة هذه الحركة، ومن الذى يستطيع أن يأخذ الصحف المندفعة فى حركاتها السياسية بملاحظة القديم وانتقاء الألفاظ؟ ومن الذى يستطيع أن يأخذ الشباب الثائر بأن يتقيد بالقاموس أو لسان العرب؟ ولا غرو ما تجاوزت هذه الحركة السياسية مصر وكانت الثورة فى قسطنطينية وأعلن الدستور العثمانى وردت الحرية إلى الأقطار العربية العثمانية فكان لهذا كله أثر قوى فى الأدب العربى، وفى النثر منه بنوع خاص، وكان هذا كله صدمة عنيفة لأنصار القديم من الكتاب والشعراء. ذلك لأن الحركات السياسية نقلت الكتابة من بيئتها القديمة إلى بيئات جديدة ما كانت لتكتب لولا هذه الحركات، فقد كانت الكتابة - كما كان العلم - حظاً مقصوراً على بيئة خاصة من الناس ثم أصبحت الكتابة كما أصبح العلم

حظاً شائعاً فى الناس جميعاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يأخذ الناس جميعاً بالتحرج فيما يكتبون والتقيد بمعاجم اللغة وأساليب القدماء ؟ وكانت الحرب العظمى فاشتد الاتصال والمخالطة بين الشرق والغرب وانتهيا إلى حد لم يعرف من قبل ثم انتهت هذه الحرب ونتج عنها ما نتج من هذه الثورة السياسية العامة فى الشرق العربى كله ، وأثر هذا فى حياة الناس على اختلاف فروعها فلم يكن بد من أن يؤثر فى الأدب أيضاً ، وفى النثر بنوع خاص . الحق أن الحرب ونتائجها وقفت نمو الحركة الأدبية فى الشرق العربى ، وأن هذه الثورة السياسية شغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية حيناً وقصرت جهودهم على السياسة ولكن هذه السياسة نفسها قد تركت فى النثر العربى آثاراً لن تمحى قبل عصر طويل ، جعلته حاداً عنيفاً واستحدثت فيه فنوناً مختلفة وأساليب متباينة من الطعن والخصومة لم يعرفها النثر العربى من قبل . ثم لم تلبث السياسة نفسها أن استحدثت حياة أدبية جديدة فى النثر ظهرت منذ حين وآتت ثمراً طيباً ، ولكنها لم تصل إلى غايتها . ومن الحق أن نقول إن مصر قد اختصت بهذه الحركة . ولكل شئ خيره وشره وقد كان للخصومة الحزبية فى مصر شرورها

وآثامها ، ولكن لها فى الوقت نفسه حسناتها ومنافعها ، وإنما نعنى منها بالحسنات والمنافع الأدبية .

وأول ما نلاحظ من هذه الحسنات أن الجهاد اشتد بين الأحزاب فاضطرها إلى أن تتنافس فى اكتساب الجمهور وكانت الصحف أجل الأدوات لهذا التنافس خطراً ، وكان الأدب من أهم الأسباب التى اتخذتها الصحف وسيلة الى التنافس. أخذت الصحف تنشر الفصول الأدبية تقلد فى ذلك صحف أوربا ، ولكنها تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة ماتكتب فى السياسة ، وما هى إلا أن أصبحت الكتابة فى العلم والأدب نظاماً تحرص عليه كل صحيفة تقدر لنفسها كرامة صحفية ، وتريد أن يحفل بها الجمهور . وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولا فى العلم والفلسفة والأدب والفن . والصحف تتجاوز مصر وتنبثُّ فى الأقطار العربية كلها ، فما أسرع ماتتأثر هذه الأقطار بهذه الفصول الأدبية . فالأدب وحده هو الذى يجمع بين البلاد العربية المختلفة جمعاً حرًّا بريئاً منتجاً بعد أن فرقت بينها السياسة .

ولست أذكر هذه الفنون النثرية الهزلية التى استحدثتها

السياسة فى الصحف الأسبوعية ، فلهذه الفنون قيمتها ولكنها ليست من النثر الذى نحن بازائه وهو النثر الأدبى الفصيح .

هذا النثر الأدبى الفصيح ان امتاز الآن بشىء فهو يمتاز بأن الخصومة فيه بين أنصار القديم والجديد قد انتهت أو كادت تنتهى إلى قدر لن يعدوه المختصمون . ذلك أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصة كل الحرص على شيئين لا ترضى بدونهما : الأول أن يقدّم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقى الأسلوب برىء من الابتذال حر من أغلال البديع والبيان ، والثانى أن يكون هذا النثر على كل ما قدمنا ملائماً لذوقها الجديد وميولها الجديدة ، قيما فى معناه كما هو قيم لفظه ، حر فى معناه كما هو حر فى لفظه أيضاً ، ومعنى هذا أن الكثرة المطلقة من الذين يقرأون العربية الآن تحرص فى حياتها كلها على أمرين : تحرص على قديمها لأنها لا تريد أن تمحو شخصيتها وتحرص على الجديد لأنها لا تريد أن تكون أقل من الغرب علماً ولا أدباً ولا حضارة . وهذا النثر الذى قدمت وصفه هو وحده الملائم لهذا الذوق الجديد وهذه الآمال الجديدة . ومع ذلك فللقديم أنصار وللجديد أنصار ، ولكن أولئك وهؤلاء قلة ضئيلة فى حقيقة الأمر ، لا يكاد

يعبأ بها أحد ، أولئك لا يزالون يستمسكون بالصناعة اللفظية ، ويسرفون فيها إسرافا شديداً ، فينصرف عنهم الناس لأنهم لا يفهمونهم، ولا يجدون عندهم ما يريدون . وهؤلاء يزدرون الألفاظ ويفنون شخصيتهم الشرقية العربية فى كتاب الغرب فينصرف عنهم الناس ، لأنهم لا يجدون عندهم هذه الشخصية الشرقية العربية ، التى يكلفون بها ويناضلون فى سبيل تحقيقها وإكراه أوربا على أن تعترف لها بالوجود .

أظنك تعفينى من أن أتجاوز هذا القدر العام إلى التحدث اليك عن شخصيات الكتاب الناثرين فى مصر وغير مصر وآثار هذه الشخصيات فى أساليبهم النثرية فقد أطلت وأسرفت فى الاطالة ولو ذهبت أحدثك عن شخصيات الكتاب وأساليبهم لما فرغت الآن ، وما أشك فى أن «المقتطف» حريص على أن أفرغ .

— ٨ —

البؤساء

كنت أريد أن أحدثك اليوم عن شاعر عربي قديم ولكني وجدت أمامي شاعراً عربياً حديثاً، فآثرت أن يكون هذا الشاعر موضوع حديث هذا الأسبوع.

الحق أني وجدت أمامي شاعرين: أحدهما فرنسي هو فيكتور هوجو. والثاني مصري هو حافظ ابراهيم. ولكني لا أريد أن أتحدث عن فيكتور هوجو اليوم. لأن كتاب البؤساء ليس من كتبه القيمة، التي تستحق الاعجاب أو تستعد لطول البقاء.

ليس البؤساء من هذه الآثار التي صدرت عن فيكتور هوجو فمثلت شخصيته القوية ونبوغه العظيم. وان كان من كتابنا المصريين الذين يجهلون الفرنسية ولم يقرأوا فيكتور هوجو إلا مترجما إلى العربية أو الانجليزية من كتب منذ أسابيع يزعم أن فيكتور هوجو ليس ذا قيمة ولاخطر. ليس البؤساء من هذه الكتب التي نقرؤها فنعجب بكاتبها،

ونشعر بأن له على نفوسنا سلطاناً وفى قلوبنا تأثيراً عظيما ، وإنما هو كتاب كغيره من الكتب فيه جودة وحسن ، وفيه اطالة واملال ، فيه صحف قيمة ، وفيه ثرثرة لاتفيد . ولست أدرى لم اختاره حافظ وكلّف نفسه ألوان الجهد والعناء فى ترجمته ! فالحق أن شاعرنا قد تكلف جهداً عظيما وعناء شديداً فى هذه الترجمة ، ولست أدرى لم اختاره ؟ بل ربما كنت أدرى ، فقد أذكر ان قد كان البِدْع فى أيام صباى تكلف البؤس وانتحال سوء الحال . والافتنان فى شكوى الناس والزمان . كان ذلك بدعا فى العقد الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدع ويروجه .

فى هذا العصر اختار حافظ كتاب البؤساء ، فترجم منه جزءاً . ولكن الأيام دارت دورتها ولم يتح لهذا المزاج السيىء المظلم أن يتأصل فى النفوس أو يسيطر عليها . فلو أن حافظاً أهمل البؤساء ولم يمض فى ترجمته لما سأله سائل ، ولا لامه أحد . ولكنه بدأعملا فأراد أن يتمه وهذا حق له وواجب عليه ، وليس يخلو من نفع جم وخير كثير .

لاأتحدث اليوم اذن عن فيكتور هوجو ، ولاعن كتاب البؤساء . وانما أتحدث عن حافظ وعن ترجمته لكتاب

البؤساء . ولست أخفى عليك أن هذا الحديث ليس بالسهل ولا باليسير ، فان لحافظ فى نفسى مكانته العالية فى نفس كل مصرى قرأ شعره الجزل ونثره المتين . وله فى نفسى مكانة خاصة هى مكانة الصديق الذى أحبه وأجله وأطمئن إلى خلقه وأرتاح إلى حديثه العذب .

لحافظ فى نفسى هاتان المكانتان ، فأنا متهم حين أثنى عليه ومكرِه لنفسى حين أنقده . ومع ذلك فمن حق كتابه على الثناء والاعجاب . فلست تقرأ فى كتاب من هذه الكتب التى تصدر فى هذه الأيام أسلوباً أمتن ولا تركيباً أرصن ولا لفظاً أحسن اختياراً وأشد ملاءمة لمعناه واستقراراً فى نصابه مما تقرأ فى هذا الجزء من كتاب البؤساء .

ليس فى ذلك شىء من الاسراف أو الغلو بل هو دون ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن تقول فى كتاب ظهر فى هذه السنة ولهذا الجيل ، فاذا قرأته استيقنت أنه لم يكتب فى هذه السنة ولا لهذا الجيل !

ماذا تقول فى كتاب لا تكاد تمضى فى قراءته حتى تشعر بأنه إنما كتب فى غير هذا العصر . كتب أيام كانت اللغة العربية بدوية جزلة لم تخلع بعد أسمالَ البداوة ، ولم ترتدِ حلل

الحضارة ، أيام كانت لغة الصحراء يصنعها الحداة والماتحون ! أيام كانت لغة الأشداق الواسعة العريضة ، والشفاه الضخمة الغليظة لا الأفواه الضيقة الظريفة ، ولا الشفاه الناعمة الرقيقة ، ثم هو يصف بهذه اللغة البدوية عواطف حضرية ، ومعانى حضرية . عواطف ومعانى نشأت فى أوروبا وفى نفس فيكتور هوجو ! يصف بلغة رُؤْبَةَ والعَجّاج وذى الرمة خواطر كتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر !

ليس فى ذلك إسراف ولا غلو ، فقد كنت أظننى أعرف العربية وأستطيع أن أقرأ فيها كتابا ولا سيما من هذه الكتب المعاصرة ، دون أن أحتاج الى بحث كثير فى القاموس . فلما قرىء على البؤساء عرفت أن من تواضع لله رفعه ! وأقسم لولا هذا الشرح الذى تفضل به حافظ على القراء لما تقدمت فى قراءة الكتاب إلا مع شى غير قليل من المشقة والعناء . ولكنى لا أدرى أمزية هذه أم نقيصة ؟ ولعلها مزية ونقيصة فى وقت واحد . مزية لأنها تدل على أن حافظاً قد وعى لغته وأحسن الالمام بها ، والانتفاع واستظهر . وعلى أنه قد كدوعنّى نفسه فى تخير هذه الألفاظ الشاردة وتقييدها وحسن الملائمة بينها وبين هذه المعانى والعواطف الحضرية المألوفة . وعلى أنه

حريص كل الحرص على أن يحتفظ للغتنا العربية بروائها القديم وجمالها البدوى التليد . وعلى أن يعصمها من السقوط والاسفاف .

ونقيصة لأنها تكلف ولأنها عقبة تحول بين القارىء وبين الفهم ، ولأنها لاتلائم روح العصر ، ولأنها لاتعين على ما قصد اليه من نشر آراء فيكتور هوجو وإذاعة عواطفه بين شعبنا المصرى الذى لايعرف لغة روبة والعجاج منه إلا نفر يحصون. ولقد كلمت حافظاً فى ذلك فقال إنى عملت للخاصة . وكنت أظن أنى من هؤلاء الخاصة ، فاذا بينى وبينهم أمد بعيد ! وأحسب أن خاصة حافظ لايوجدون إلا فى خياله !

أحمد لحافظ هذه اللغة الغريبة الجزلة ، لأنها تدل على عناء وجهد عظيمين ، وأنكرها عليه لأنها تكاد تجعل هذا الجهد غير نافع وهذا العناء غير مفيد . وما رأيك فى أنى أقرأ الأصل الفرنسى فأفهمه بلاعناء وأقرأ ترجمته العربية فلا أفهمها إلا كارهاً ! ولست أتقن الفرنسية اتقانا خاصاً ولا أجهل العربيـــة جهلا خاصاً ، فكثير من الناس يفهمون البؤساء بالفرنسية فهماً يسيراً ويفهمون البؤساء بالعربية فهماً عسيراً ، ولقد قال لى أحد الكتاب المجيدين : أليس غريباً أن يكون

ابن المقفع أدنى الى افهامنا من حافظ !

أيسمح لى حافظ بعد هذا أن آخذه بعيبين عظيمين : آسف جداً لأنى مضطر الى آخذه بهما ؟ فله علينا حق الانصاف ولكن للعلم والنقد حقهما من هذا الانصاف أيضاً .

الأول أن ترجمته ليست كاملة ، فهو يلخص ولا يترجم . ولست أريد أن أطيل فى ذلك وإنما ألفته إلى أنه قد أهمل الصفحة الأولى من الكتاب إهمالا تاماً فلم يشر اليها بحرف وهذا نصها :

« لعل القارىء قد أحس أن « مسيو مدلين » لم يكن الا وجان فلجان » لقد نظرنا فى أعماق هذا الضمير ، وقد آن أن نعيد النظر فيه ، ولن نفعل ذلك دون أن ينالنا الانفعال ، ويملكنا الاضطراب ، فليس شىء أبعث للقلق فى النفوس من هذا النوع من المشاهدة . ولن تستطيع عين العقل أن تجد فى أى مكان ضوءاً أخطف للبصر ، أو ظلمة أشد مما تجد فى الانسان ! لن تستطيع هذه العين أن تثبت على شىء أدعى الى الخوف وأشد تعقيداً ، وأكثر غموضاً وأبعد مدى فى الوجود منظر أعظم من البحر . منظر السماء وفيه منظر أعظم من السماء ، هو دخيلة النفس !

وليست محاولة انشاء هذه القصيدة ، قصيدة الضمير الانسانى ولو بالقياس إلى رجل واحد ، ولو بالقياس الى أشد الناس ضعة . إلا محاولة صوغ القصائد القصيصة كلها فى قصيدة واحدة أعلى مكانة فى الشعر وأدنى الى الكمال . انما الضمير هو النار المتأججة تسبك فيها الأحلام وهو الكهف تختبىء فيه الخواطر الدنيئة المخجلة ، وهو العاصفة الجهنمية تأوى اليها كل شياطين المغالطة ، وهو ميدان الجهاد بين الشهوات .

تخطّ فى بعض الأحيان هذا الوجه الممتقع ، وجه الرجل المفكر ، وانظر وراءه . انظر فى هذه النفس ، انظر فى هذه الظلمة . ان تحت هذا الصمت الظاهر لحرباً ضروساً قد اشتبكت فيها المردة كما فى « هوميروس » ومعارك قد التحمت فيها التنانين والحيات ، وسحاباً من الأشباح كما فى « ميلتون » ودخانا يصعد ملتوياً كما فى « دنتى » شىء مظلم هذا الضمير الذى لاحد له ، والذى يحمله كل انسان فى نفسه ويقيس به يائساً إرادة عقله ، وما فى حياته من عمل !

لقد صادف «البجيرى» فى يوم من الأيام باباً مخيفاً تردد قبل أن يلجه ، فانظر أمامك فهذا باب مخيف أيضاً ، نتردد

أمامه . ومع ذلك فلندخل ! » .

بحثت عن هذا الكلام فى الترجمة فلم أجده ، وما أحسب أنه سقط فى المطبعة سهواً أو خطأ !

العيب الثانى : أن ترجمته — على ضخامة ألفاظها وفخامة أساليبها وعلى مالها من روعة وجمال — ليست دقيقة ولا حسنة الأداء ، وقد يكون لحافظ فى ذلك رأيه . ولكنى أرى أن ليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل . وليست ترجمة حافظ كذلك . ولست أريد أن أطيل ، وإنما أضرب مثلا واحداً . قال حافظ :

« قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر «جان فلجان» منذ ابتذ ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال هذا الرجل إلى رجل آخر . وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد (كذا ؟) أفاعيلها فأختطفته إلى المعبود وأخرجته من مسلاخ الشرّة (كذا ؟) والضغينة وأسكنته فى إهاب من الفضيلة » .

وقال فيكتور هوجو :

« ليس لدينا إلا شىء قليل نضيفه إلى ما عرف القارىء من أمر « جان فلجان » منذ كان بينه وبين « بنى جارفيه »

ما كان . فقد رأيت أنه أصبح رجلا آخر منذ ذلك الوقت فأنفذ ما أراد الأسقف أن يصنع به ، صنع بنفسه شيئاً أكثر من التحويل ، خلقها خلقاً جديداً .

ولو أننا ذهبنا فى المقابلة بين الأصل والترجمة لأظهرنا خلافاً شديداً جداً بين الشاعرين : الفرنسى والعربى . ولكننا قد أطلنا فالنختصر .

نأخذ حافظا بعيوب ثلاثة : الاسراف فى اللفظ الغريب، والاعراض التام عن بعض النصوص . والتشويه الذى يختلف قوة وضعفاً لبعضها الآخر . وهذه العيوب الثلاثة خطرة جداً ، ولكن حافظاً يستطيع أن يحتملها فليس يمكن أن نقرأ لا أقول ترجمته ، بل أقول كتابه دون أن نستفيد .